



لم يدر في خلد فتية درعا وشباب القاهرة وشبيبة تونس يوم خرجنوا كاسرين قيود عقود من الوهن أن شعارهم الخالد "الشعب يريد إسقاط النظام" يتجاوز نظام الأسد وبن علي ومبارك إلى النظام العالمي القديم منه والجديد.

وما مشهد حشود أساطيل الطائرات والسفن والناقلات ورائحة البارود ودوي القنابل والصواريخ برا وبحرا وجوا إلا مجرد شواهد على أن هذا النظام العالمي قائم في بلادنا، شاء من شاء وأبى من أبى رغم أنف كل من يحاول الاقتراب من الخطوط المحرمة.

وهي خطوط أقدم من مرحلة تقسيمات سايكوس-بيكو مع نهاية الدولة العثمانية بكثير، إذ تستمد وجودها عبر قرون من الإرث الاستعماري ذاته، فمن حروب صليبية إلى غزوات استعمارية تلت سقوط الأندلس فضمت حملات إسبانية وبرتغالية وهولندية وفرنسية وبريطانية وروسية وسيطرة أميركية وإيرانية، بما يرتبط بها من اتفاقيات حماية ومعاهدات – بأغلظ الأيمان – عسكرية واقتصادية وتجارية وثقافية، وما ترتب عليها من قواعد عسكرية ومناطق نفوذ وتقاسم ثروات محلية لحساب القوى والمصالح والشركات متعددة الجنسيات، وكلها بالطبع أجنبية.

إذن، هي مؤثرات خارجية أسللت تأثيرها على إنسان المشرق العربي ومغربه لتطول كل شيء من تكوينه إلى اختياراته، انتهاء بالربيع العربي التأثر على مخلفات ذلك الإرث الاستعماري من واقع تمثله أنظمة تدور في فلك الاستعمار عمليا لا تفارقه قيد أنملة.

على صعيد حرية الاختيار شعبيا، نجد أن من بين أبرز ما استوعبه الشعب العربي عقب جولتين من جولات الربيع العربي (جولته الأولى نصف ثورة شعبية والثانية ثورة مضادة دموية) أمررين: الأول أن ديمقراطية الصندوق الحقيقة – لا الزائفة – مخرجها الوحيد استرداد الشعب قراره وسيادته الوطنية؛ وهو ما لن تتنازل عندهما – طوعاً – منظومة القوى والمصالح الدولية التي يخضع لنفوذها الكثير من العرب حكام ونخبة.

والثاني أن الديمقراطية بلا قوة وإرادة وطنية تحميها لا قيمة لها، وهو ما لم يتحقق عندما ظن ثوار ميادين تونس والقاهرة ودمشق أن شعارات الحرية والديمقراطية المعرفة ضمن اصطفاف العالم "الحر" لجانبه، كما كانت الحال في الثورات البرتقالية والمخلدية بدول أوروبا الشرقية، وهو ما لم يتحقق لسبب بسيط أدركه الجميع لاحقاً، وهو أن من ناصر الثورات الملونة كانت له فيها مصلحة، أما ثورات الربيع العربي فيراها تهديداً للمصلحة، فوقف منها موقف النصير للثورة مضادة.

بين المغرب والمشرق:

على صعيد الفهم، نجد ثوار الربيع العربي ونخبه أدركوا – بعد وقت قصير وعبر تسلسل الأحداث – قواعد لعبة مصالح القوى الكبرى في ما يتعلق بثوراتهم. وإن تساوى الجميع في الفهم كجزء من معركة الوعي، نجد الاختلاف – بين الثوار والمتعلعين للتغيير – في كيفية التعاطي مع الواقع الجديد.

وهنا يبرز الاختلاف بين مدرستي الربيع العربي المغربية والمشرقية؛ إذ امتحنت الأولى بنسختيها المغربية والتونسية صدمة الثورة مضادة بسلامة، ملقية الكرة مبكراً في ملعب الأخيرة أن تعالوا نتفق على قواعد جديدة للعبة الجديدة قوامها المشاركة لا المغالبة بين مكونات الحلبة، وهم نتفق على أطر الشرعية من دستور جديد كأساس لبناء للدولة مقدم على المحاصلة الحزبية الضيقة.

وعلى النقيض نجد التجربة المشرقية تؤثر مبدأ المغالبة والإقصاء المتبادل بين من هتفوا بالأمس معاً في ميدان واحد "الشعب يريد إسقاط النظام"، بكل ما يترتب على ذلك الإقصاء من عدم مراوحة الثورة مربعها الصغير، لا الأول.

وبالطبع لا نبرئ هنا كل من انقلب على الشرعية أو ركب قطار الثورة أو تحالف مع قوى الثورة مضادة أو نكس عن مبادئه أمام إغراء "الرز" والدور الموعود في مرحلة لاحقة؛ بل نقول إن إخفاق فريقي الثورة مضادة والنخب التي لم توفق في طرح نفسها بديلاً مؤهلاً لتنزيل الشعار أرض الواقع، هو جزء من عملية تصحيح ذاتي لمسار الثورة وتطهير لجسمها من معوقات تحملها بداخلها، ليكتسب شعار "الشعب يريد إسقاط النظام" أبعاداً أعمق تشمل إسقاط ما ورثه الثوار من عوامل الوهن على مدى أجيال من عبودية جبلتها كلمة "أنا".

تحديات الجولة الجديدة:

على ضوء التوحد الجلي لقوى الثورة مضادة، سواء عرابو الخارج أو وكلاء الداخل، في مشروع استئصالي واضح المعالم، يقابلها تشرذم فصائل الثوار بلا مشروع جامع أو خارطة طريق واضحة المعالم، تبدو استفادة جناح الربيع العربي الشرقي من تجربة جناحه المغاربي أمراً منطقياً، وإن تجاوزت الأحداث النقطة التي يسهل عندها تصويب البوصلة غرباً.

ليس المطلوب هنا استنساخ تجربة وتنزيلها بغير موضعها، بل استلهام عوامل قوتها على صعيدي النهج والعبرة، وبمعنى أدق تقديم مصلحة الأوطان على مصالح الذوات، ومصلحة الكل على مصالح الأجزاء، دون تخل عن مصطلحي الشرعية أو الحقوق الإنسانية.

ينطبق ذلك أيضاً على حراك اصطفاف قوى الثورة المصرية على قاعدة الشرعية، أو التقاء أوعية الثورة السورية – ولاحقاً

العراقية بعد استعادتها مكوناتها الثورية. على إطار جامع يضع في مقدمة القطار قاطرة الشرعية.

ليس المقام هنا مقام ترديد شعارات، بل تمثلها مقصداً وممارسات، فرب رافع شعار تحكيم شرع الله يسبقه - بمراحل على طريق القسط والعدل. من يطبق الشعار واقعاً بلا ضجيج ولا لافتات ضخمة أو عناوين رنانة، لأن العبرة صحة الهدف وسلامة القصد ونجاعة الوسيلة.

وحتى الرسول المصطفى - عليه أفضـل الصلوات وأتم التسلـيم - ألم يراعـ ظروفـ المرحلة؟ ترى هل شهدناهـ فيـ عـهدـ الدـعـوةـ المـكـيـ رـافـعاـ شـعـارـ تحـكـيمـ الشـرـعـيةـ أـمـ أـنـهـ كـانـ عـامـلاـ بـهـ لـاـ يـأـلـوـ جـهـاـ فـيـ بـنـاءـ إـلـيـسـانـ رـكـيـزـةـ لـبـنـاءـ مـجـتمـعـ عـدـلـ فـيـمـاـ بـعـدـ؟

جولتان من ربيع العرب كانتا كافيتين لسقوط الكثير من الشعارات والرموز والمقامات والأوهام بعدهما أيقن القوم أن أكثر من يرفع الشعار يحيد عنه - ومقصدهه - عند التطبيق. من أراد أن يخدم الناس فليقترب من واقعهم وليشعر بمعاناتهم وهمومهم وتطبعاتهم ثم ليتفضل بعدها لخدمتهم بلا جمعة أو اشتراطات، وإنما ببرامج تطبيق ذات سقف معقول يناسب واقع المرحلة.

وعلى وقع الصدمات بات أهل الربيع على وعي بأن ما فسد على مدى قرن كامل لن يصلحه عام واحد، وأن تفاني من توكـلـ لهـ مـهـمـةـ عـلـاجـ هـمـومـهاـ سـيـقـابـلـهـ كـيـدـ دـوـلـ عـمـيقـةـ بـالـجـمـلـةـ،ـ لـاـ دـوـلـةـ عـمـيقـةـ وـاحـدـةـ.

لن يطالبك الناس بغزو الفضاء، ولا أن تنقلهم لمصاف الدول العظمى، بل تتلخص مطالبهم بالحد الأدنى لتحقيق الكرامة والمعاش في مرحلة أولى، وخدمتهم على قاعدة "المؤمن كيس نطن"، لأن مكانية من أراد الصلاة هو القلب، وما قيامه وركوعه وسجوده سوى مصدق لخشوعه وتسليم جوارحه، لا يعلم بعدها أقبلت صلاته أم لم تقبل. وكذا كشف حساب العمل العام - ومن ضمته مؤسسة الحكم - في نهاية الخدمة؛ إما أن يمنحك الناس أصواتهم لفترة جديدة، أو يعاقبوك بمنحها لآخر.

دروس من الأتراك:

ثوار الشرق مدعاون، بجانب الاستفادة من تجربة إخوتهم المغاربية، للاستفادة من تجربة الجار التركي على مرمى حجر، وهي التجربة التي كشفت الكثير من عوار أنظمة المنطقة، ومعها عوار جل رافعي لواء الثورة على تلك الأنظمة.

مختصر التجربة التركية الحديثة "قليلٌ كلامٌ وكثيرٌ فعلٌ" بلا متابعة بقضايا الناس وهمومهم، وفي النهاية أفلح القوم معاً بإسقاط نظام دولي بامتياز وإقامة ما يناسبهم مكانه، تاركين لغيرهم الاختيار ما بين إعجاب ونباح. من يرفع لواء الحرب المقدسة - كبوتين - يهاجمهم متهمـاـ إـيـاهـمـ بـالـاسـلـمـ،ـ وـبـيـنـماـ يـتـهمـهـ صـهـائـنـةـ الـعـرـبـ بـالـعـلـمـةـ،ـ يـتـهمـهـ دـوـاعـشـ الـعـرـبـ وـالـفـرـسـ وـالـشـرـقـ وـالـغـرـبـ بـالـكـفـرـ وـالـرـدـةـ عـنـ الشـرـعـيـةـ أـيـاـ كـانـتـ الشـرـعـيـةـ!

ما ينبغي تعلمـهـ هناـ أـنـ شـعـارـ الـقـوـمـ بـالـتـرـكـيـةـ لـمـ يـجـاـوـزـ كـلـمـتـيـنـ:ـ أـوـلـاهـمـ "ـعـدـالـةـ"ـ وـثـانـيـهـمـ "ـتـنـمـيـةـ".ـ وـهـلـ يـخـتـلـ اـثـنـانـ عـلـىـ أـنـ إـقـامـةـ الـعـدـلـ فـيـ الـأـرـضـ وـتـنـمـيـةـ الـإـنـسـانـ بـعـدـ تـحـرـيرـهـ وـمـنـهـ حـرـيـةـ الـاـخـتـيـارـ -ـ قـبـلـ السـهـرـ عـلـىـ خـدـمـتـهـ.ـ مـبـادـئـ عـالـمـيـةـ تـطـابـقـ جـوـهـرـ الشـرـائـعـ كـافـةـ،ـ أـثـنـىـ خـالـلـهـ الـهـدـيـ النـبـوـيـ عـلـىـ مـلـكـ -ـ يـكـتـمـ مـعـقـدـهـ وـيـسـوـسـ النـاسـ بـعـدـلـهـ.ـ كـالـنـجـاشـيـ؟ـ

آن لثوار الشرق الالتفات نحو المشترك لا المفرق، والتركيز على عام المبدأ لا جزئي التفاصيل مما يترك لمرحلة لاحقة، وأن لهم طرح العناوين الكبيرة جانباً، اتبعـاـ لـمـنهـجـ التـدـرـجـ بماـ تـطـيقـهـ الـمـجـتمـعـاتـ بـدـلـاـ مـنـ التـوقـفـ عـنـ جـزـئـيـةـ منـ يـتـقدـمـ الآـخـرـ؛ـ العـرـبةـ أـمـ الـحـصـانـ؟ـ وـآنـ لـلـجـمـيعـ أـنـ يـؤـمـنـواـ أـنـ الـثـورـةـ مـاضـيـةـ بـهـمـ أـوـ بـغـيـرـهـمـ،ـ وـآنـ الـوـحـدـةـ قـضـيـةـ مـصـيـرـيـةـ تـصـنـعـهـ إـرـادـاتـ محلـيـةـ لـاـ قـوـىـ خـارـجـيـةـ.

كما أن لكل من يرفع شعار نصرة البلد أن يعني أن العون لا يعني أداء فروض الطاعة لك من أهل ذلك البلد؛ فالحل ما يراه الأهل لا ضيوف البلد ولا أولياء نعمتها.

وأخيراً آن للجميع أن يدركون أن شعار "الشعب يريد إسقاط النظام" لا يعني استبدال طاغية بطاغية أيا كانت خلفيته وأيديولوجيته، فتلك مرحلة تجاوزتها شعوب الربيع العربي على اعتاب جولة جديدة لن تخذلهم إن تمت الاستفادة من دروس الطريق الصعب نحو الكرامة والحرية.

[الجزيرة نت](#)

المصادر: